مظاهر الطبيعة في الأدب الإسلامي

د. يعقوب عبد الله
كلية الدراسات العربية والشريعة الإسلامية،
إلورن – نيجيريا

مقدمة

لقد ظل الإسلام والقرآن الكريم عاملين قويين في توجيه أفكار المسلمين، وتنوير عقلياتهم، وتضبيط سلوكاتهم، وفي ميدان الأدب بالذات أحدث القرآن الكريم انقلابا عظيما في مساره منذ نزوله وأنبت نباتا طيبا في أرضه، وزاد حقوله وثماره خصبة ورونقا من حيث اللفظ والمعنى والخيال والعاطفة. فالأدب الإسلامي كمصدره الأول، ذلك الكتاب العزيز الذي بيّن كل شيء حكمه لا يضيق مجاله عن شيء، لا عن موضع من مواضع الحياة، ولا عن حالة من أحوال الإنسان، ولا عن مظهر من مظاهر الكون، فهو متسع لتلك كلها، ومتسع لمجالات أخرى، وهو مخالف لما قد يظنه ظان أنه أدب ديني أو أدب صوفي، مقيد بقضايا دينية أو شعائر عقائدية أو مدائح نبوية.

وبناء على حقيقة ثابتة أن الكون وما اشتمل عليه مسخر لمنفعة الإنسان ومهيئ لتيسير معاشه على وجه الأرض "وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه" (الجاشية، الآية: 13). فإن الكون رحمة مهداة للخلق وعطاء رباني للكائنات، فلا يوجد تعبير فني كفيل لتصوير هذا الكون، وتفسير مظاهره ومكامنه وتوضيح عبره وحكمه، إلا تعبيرا استقى من توجيه رباني أو عايش صاحبه تجربة إسلامية، وتزوّد من تعاليم القرآن وصوره. لذلك يعتبر الأديب المسلم هو وحده من باستطاعته الاحتلاق في آفاق الكون معبرا ومصورا ما فيه من معجزات وقدرات باهرة وخيرات كثيرة على الوجه الصحيح. فهذا البحث يعرض شيئا من مظاهر الكون في الأدب الإسلامي، نسوق في ثناياه الحديث عن مجالات هذا الأدب ثم تقييد بعض مظاهر الكون في نصوص أدبية إسلامية، ثم الخاتمة.

مجالات الأدب الأسلامي:

وقبل أن نتفرغ للحديث عن مظاهر الطبيعة في الأدب الإسلامي لا حرج أن نتحدث بصورة عامة عن مجالات أخرى لهذا الأدب، وتتمثل في الإنسان والحياة والكون. فالإنسان في الأدب الإسلامي كائن حي متميز بكونه خلفية الله في الأرض، مركب من روح وجسم، يسمو إلى تحقيق الغاية التي خلقت من أجلها، ويهبط أحيانا إلى الوهدة الشيطانية. فيصور الأدب الإسلامي هذا الإنسان بعواطفه، وأشواقه، وآماله، وآلامه، ويعرض خيراته وحسناته، ويصف عدله وحبه، ويبرز صوابه واستقامته، وكذلك لا يضيق عن لحظات ضعفه، وجوانب النقص والانحلال الخلقي فيه، فيرسم لحظات شذوذه وانحرافه، وتخبطاته في عالم الشهوات وأمام إغراء الشيطان[1]. لكن لا يعالج هذه الحالات والمواقف ليجعل الإنسان فيها بطلا، يستحق

هتافا وتمجيدا، أو يصوره كنموذج لحقيقة الإنسانية، بل يعالجها على أنها من لحظات ضعف وانهزام في الإنسان، وأنها هبوط وتأخر وإثم، ثم يعقبها الندامة والرجوع إلى جادة الصواب.

وحينما يتناول الأدب الإسلامي القضايا الحياتية فإنه لا يقتصر على جانب الحياة الدينية وحدها، بل يصورها كظاهرة حيوية، ويبرز مواقفها المختلفة، ويصف قيمها وعمقها وأثرها في المجتمع، يتغنى بشعائره، ويشيد بتعاليمه، ويعرض رجاله، ولا يسكت عما قد يعتريها من مواقف الضعف والخمول ممثلا في أفراد، وأحزاب، وفرق. ويناقش الأدب الإسلامي الجوانب الاجتماعية المتنوعة، فيصور الصراع الطبقي ويصف النزعات القومية والفردية من خلال التصور الإسلامي ليقود المجتمع إلى المثل الأعلى، وإلى بناء كيان محمود يسوده الأمن والتقدم.

أما الحياة السياسية فلا يوليها دبره بل يراقب قضاياها وأحداثها، ويتناول ممثليها وشخصياتها بالنقد والوجيه، ولا يكون الأدب الإسلامي في أية حالة ذيلا أو صدى لحزب من الأحزاب ولا لرئيس أو حاكم، وإن كان مشيدا ومؤيدا لكل سياسة ترضي الله ورسوله. ولا يغفل هذا الأدب عن جوانب الحياة الأخرى من حياة عقلية واقتصادية وغيرها مما له صلة بالمجتمع البشري، وكذلك يقف الأدب الإسلامي عند الطبيعة فيصور أشتاتها، من طيرها وحيوانها، وربيعها وخريفها، وصيفها وشتائها، ومطرها وأشجارها، وغير ذلك من خلال التصور الإسلامي[2].

مظاهر الطبيعة:

خاض كثير من الأدباء قديما وحديثا في أودية تصوير الطبيعة والوقوف عند أجزائها من مصور جمالها وبراعتها أو مبعث روحا وحركة في أجزائها، مؤنسا بها ومناجيا أو معبرا عن فوائدها وخيراتها مشيرا إلى حكم إيجادها وآثارها في الوجود، وغير لك مما تمليه قريحة الأديب. إذن، فماذا يميز الأديب المسلم عن غيره من الأدباء في هذا الحقل؟ لا فرق بينه وبين أدباء آخرين في التعبير عن الطبيعة والمعايشة معها وفي تبادل الحوار معها إلا أنه مهما تعمق في ذلك الفن، وكلما انسال مع الطبيعة في عالم جديد، عالم خيال وفن، عالم شعور وعاطفة، لا تخلو أفكاره وتصوراته من أن تكون مرتبطة بقدرة الله القاهر، ولا تضيق معانيه وصوره عن إجلاء حقيقة من حقائق إيجاد هذا الكون، الحقيقة الإلهية التي خلق الكائنات من أجلها، فلا ينظر إلى الطبيعة نظرة متعة وتسلية منعزلا عن غاية وحقيقة ورسالة[3].

ولنقف أول وهلة لدى شاعر مفوه وأديب إسلامي مصطفى صادق الرافعي ونعيش معه تجربته في تصوير بعض مظاهر الطبيعة في قصيدة طويلة سماها: "السماء والبحر" وهو يجلي لنا جانبا من أحاسيسه ومشاعره نحو هذين الكائنين. استهل الشاعر القصيدة بإجلال قدرة الخالق المبدع للكون، فشبه الكون بامرأة جميلة مختمة تملأ الفضاء نورا كلما ظهرت، فهي كالدر في صدف، والبحر جزء من جزئيات هذا

الكون، وهو بمثابة العين والحاجب للمرأة، أما السماء فتظهر دائما في زيّ جميل وزينة مبهرة، فهي في الليل مزينة بنور الكواكب وبالنهار محللة بشعاع الشمس وسطوع ضوئها:

على السماء وفوق الشمس أشعاري *** تحت أصداف هذا اللج أفكاري
وبنين تلك وهانا جري قد قلمي *** بمعجز الوصف من در وأنوار
أرى جمالا تعالى أن ألم به *** وجل خالقه من مبدع باري
كأنما الكون غيدا محجبة *** تطل مشرقة من خلف أستار
فالبحر مقلتها والبحر حاجبها *** من فوقه جبهة زينت بأقمار
أو كان البحر ديباج السماء وقد *** انحل الوشاح فها صدر السما عاري
أو هذه لبست من ليلها حللا *** ومن كواكبها زرت بأزوار
أو إنما الشمس ظنت أنها خطفت *** بالحسن أبصار قوم دون أبصار[4]

ويستمر الشاعر في تصويره السماء والبحر فيعقد بينهما علاقة الصداقة والمحبة، علاقة الصفاء، والتعاون، والعطاء، وهذه العلاقة منعكسة في ولوج شعاع الشمس في البحر، وذلك عطاء من السماء إلى الأرض يجد سكان الأرض به تخفيف ما مسّهم من حزن وشقاء:

أرى الشمس تحت البحر مطفأة *** والماء ما زال ذا بأس على النار
كأنما هو كف الأرض قد بسطت *** إلى السماء فجادتها بدينار
أو غاصت الشمس تحت اللج هاربة *** فما على الناس من هم وأكدار
ألست تبصرها صفراء جازعة *** وقد خبا زند تلك الشعلة الواري

ثم يختم الشاعر القصيدة بتوجيه أفكار الناس إلى أخذ العبرة والعظات من السماء والبحر بما اشتملا عليه من آثار قدرة الله الباهرة القاهرة، ومن عجز الإنسان وضعفه أمام صنعته تعالى وآثار قدرته:

يا أيها الناس إن البحر موعظة *** وحجة البحر ليست غير أنذار
فكم عليكم به لله من حجج *** هل يغفر الذنب إلا بعد أعذار ؟
البحر ألين شيء ملمسا فإذا *** خاشنتموه بلوتم أيّ جبار
لو تساند كل الخلق ما قدروا *** أن يحبسوا موجة من موجه الجاري
فكيف يجحد رب البحر قدرته *** وذلكم أثر من بعض آثار
أمنت بالله ما شيء أراه سدى *** لكنها حكم تجري بأقدار[5]

فنحن نلاحظ انسجاما جميلا بين بداية القصيدة وخاتمتها، وهو انسجام يميز فنا إسلاميا عن غيره، فالشاعر خلال القصيدة لم ينظر إلى مظاهر الطبيعة نظرة مجردة وإنما نظر إليها مرتبطة بقدرة الخالق، وكآية من آياته الباهرة، وذلك دليل على إسلامية مشاعر الشاعر وعواطفه.

ونلم بمظهر آخر من مظاهر الطبيعة، يعرضه لنا شاعر مرهف الحس، وأديب إسلامي أريب، هو الدكتور عيسى ألبي أبوبكر. والمظهر مما يذوب له كل نفس عطوف وينكسر أمامه كل قلب رحيم شفيق، هو مشهد الديك المحترق بالنار حيا. استهل الشاعر القصيدة باستفهام عن ذنب اقترفه الديك حتى يصب عليه سوط العذاب، أو يجازى بهذا التمثيل. وهو استهلال نابع عن تجربة إسلامية، واستجابة لحقائق إنسانية. فحين أحل الإسلام ذبح الحيوان فقد حرم إحراقه بالنار حيا، بل أوجب على الإنسان معاشرة الحيوان بالرحمة والشفقة. وهذا نص القصيدة:

يا ديك ما ذنب الصياح *** تفشيه فـــي الفجر الملاح؟
وتمدّ عـرفك فـيه فـي *** زهو يحـــبب وانـــشراح
يـــصحو بـــه من قد تعـ *** مق في المنام إلى الصباح
ويعود بـــعد الصمت للـ *** دنيا النشاط كذا المراح
تغريـــك زخـرفة الـــريا *** ش كذاك زركشة الجناح
وتجاوب الأطـــيار يـــعـ *** ذب بالتـغرد والنـــواح
إني رأيـتك تـــــلتظى *** يـــوما بـــلا أثر الجناح
تري ضـــئيلا حـــائرا *** والنـار مـــسكرة كراح
هـــو مشهـــد سأظل أذ ***كـــره وفي القلب الجراح
مـــا ذاك إلا غـــــلظة *** فـي الخلق ليس لها براح

أنظر بعد هذا كيف حرّك الشاعر مشاعرنا، وبعث فينا روح الشفقة والرأفة، وركب فينا عاطفة الثورة والانتقام من ذاك المجرم، ثم انظر كذلك كيف ربط المشهد بذنب، وإجرام، وقرنه بغلظة، وخشونة، وفقد إنسانية، وليس المشهد إلا كما قاله الشاعر:

هو مشهد سأظل أذ *** كره وفي القلب الجراح

ومما لا شك فيه أن عاطفة الشاعر متميزة بالإسلام والإنسانية، يستجيب لها كائن حي، وكل نفس مؤمنة. وإذا كانت القصيدة السابقة تمثل ظاهرة من ظواهر الإنسانية وتعرض المشاعر والعواطف الإسلامية تجاه طائر داجن، فالشاعر الأندلسي المعتمد بن عباد يظهر لنا إنسانيته وشعوره الإسلامي تجاه طير الغابة "سرب القطا" هذه الطير التي كانت تتمتع بكل ما يحرم منه الشاعر، فيدعو لها أن تبقى آمنة مسبلة على صغارها ممتدة على فراخها في الوقت الذي كان الشاعر في السجن لا يجد أطفاله ماء ولا قوتا، وتحيط بهم مظاهر الأسى والشقاء.

بكيت إلـــى سرب القطا إذ مررن بي ** سوارح لا سجن يعوق ولا كـــبل
ولـــم تـك والله الـــمعيذ حســـادة ** ولكـــن حنينا أن شكلي لها شكل

فأسرح لا شملي صديع ولا الحـــشا ** وجيع ولا عيناي يـــبكيهِ ثـــكل
هنيئا لـــها أن لم يفـــرق جمعها **ولا ذاق مـــنها البـــعد عن أهله أهل
وأن لم تبت مثلي تطـــير قـــلوبها **إذا اهتز باب السجن أو صلصل القفل
وما ذاك مما يعتريـنـي وإنــــما ** وصـفت الذي في جبلة الخلق من قبل
لنـــفسي إلى لقيا الحسام تشـــوق ** سـواي يحب العيش فـــي ساقه الحجل
ألا عـــصم الله القطا في فراخها ** فـــإن فراخي خـــانها الـــماء والظل

فهذه القصيدة تمثل تجربة إسلامية وشعورًا إنسانيا صادقا، التجربة التي عصمت الشاعر عن الحسد والتشاؤم، وساقته إلى التعاطف الصادق والدعاء لطير الغابة.

ومن أروع ما قيلت في وصف الطبيعة والتأمل فيها قصيدة ابن خفاجة الأندلسي في وصف الجبل، نوردها هنا لأنها تمثل استجابة جميلة لدعوة قرآنية إلى التأمل والتفكر في الكون "وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء" (القصص: الآية 88).

نص القصيدة:

وأرعـــن طماح الذؤابة بـــاذخ ** يطـــاول أعنان السماء بغارب
يسد مهب الريح من كل وجهـــة ** ويزحم ليـــلا شهبه بالمناكب
وقور علـــى ظهر الفلاة كأنـــه ** طوال الليالي مفكـــر في العواقب
يلوث عليه الغيم سـود عمـــائم ** لها من وميض البرق حمر الذوائب
أصخت إليه وهو أخرس صامت ** فحدثني ليل السرى بـــالعجائب
وقال: ألا كم كنت ملجـــأ قاتل ** وموطن أواب تبتل تائـــب
وكم مربي من مدلج ومـــؤوب ** وقال بظلي من مطي وراكـــب
ولاطم من نكب الرياح معاطفي ** وزاحم من خضر البحار جوانـــبي
فما كان إلا أن طوتهم يد الـــردى ** وطارت بهم ريح النوى والنوائب
فما خفق أيكي غير رجفة أضـــلع ** ولا نوح ورقي غير صرخة نـادب
وما غيض السلوان دمعي وإنمـــا ** نزفت دموعي في فراق الصواحب
فحتى متى أبقى ويظعن صاحـب ** أودع منه راحلا غـــير آيب؟
وحتى متى أرعى الكواكب ساهرا ** فمن طالع أخرى الليالي وغـــارب
فرحماك يا مولاي دعوة ضـــارع ** يمد إلى نعماك راحـــة راغـــب
فأسمعني من وعظه كل عـــبرة ** يترجمها عنه لســـان التجـــارب
فسلّى بما أبكى وسرّى بما شجـــا ** وكان على ليل السرى خير صاحب

وقلت وقد نكبت عنه لطية ** سلام فإنا من مقيم وذاهب[8]

وقف الشاعر عند جبل شامخ يفكر في روائع خلقته وضروب منافعه للناس. وحين أراد تسجيل مشاعره وأحاسيسه جعلها على لسان الجبل، فقال إنه أنصت إلى حديث الجبل طوال ليلة يحدثه عن صروف الدهر التي عبثت به فكان تارة ملجأ القتلة الهاربين، وتارة ملاذ العابدين الذين آثروا الآخرة على الدنيا، وكم كان مأوا للسارين، ومقيلا للنازلين، وكثيرا ما صادفته الرياح النكباء وزاحمته السحب الكثيفة، ثم يتعجب الجبل من بقائه في مكانه وعلى حالته منذ زمن بعيد، وها هي صروف الدهر تذهب بأصدقائه وزواره، يفقدهم واحدا بعد واحد، فأيقن أنه لا بد راحل يوما كما رحل أصحابه، وهنا مد الجبل يده ضارعا راغبا في رحمة ربه ونعمه.

وفي كل ما سرده الشاعر على لسان الجبل لآيات لكل عاقل متفكر في عاقبة الأمور، آيات تهز مشاعر الإنسان وتوقد عواطفه استعدادا لرحلة من الحياة الفانية إلى الحياة الباقية أو استعدادا لتحقيق الغاية من خلقه والوفاء بميثاقه.

ومن الشعراء من عند التأمل في الطبيعة يلم أشتاتها، ويقف عند أنواعها، يبث أفكارها، ويلقي نظره إليها موضحا أسرارها وحقائقها، وذلك منهج الشاعر الدكتور عيسى ألبي أبوبكر ي هذه المرة في قصيدته "الطبيعة":

يا خليلي ارجعا من هوى نف ** سكـــما واخشيا إلهي تعالى
ولمــــاذا أراكــــما دائمي كف ** ر طويلي خنا هوى وضلالا ؟
فأفيقا مــــن غفلـــة حمقاء ** أنا ملــــق عليكـــما أقوالا
وابذلا لي العقول ساعة قولي ** وينال الــــورى بها أمثالا
إن لله قوّة فـــــانظراها ** تريا قوّة ســـواها محـــالا
خلقت هذه السموات والأر ** ضـــين منّا هــندية ونوالا
كيف لا تنظران ماء من الخضـ ** راء يأتي الدنا سجالا سجالا
فيحيي أرضا وقد جاءها المو ** ت ليحيا الورى عليها طوالا
واختلاف النهار والليل يأتي ** ليرى الناس قوّة وجـــلال
وهذه الشمس لفحها يلعق العنـ ** ق وأنوارها إلينا تـــلالا
وأديرا الوجوه للأرض طوعا ** تـريا فـــي بطــونها أجبالا
شاهقات والكبرياء بدت في ** حالها لاتـــرى لها تـــرحالا
عاصرت في جثوّهـا المتناهي ** أممــــا لا تعـــدها أجيالا
وأرى النسر واقفا بـــذراها ** يتدانى من سفحـــها إقبالا

فإذا ما رأى عجافا من الطيـــ ** ـر تـــــلاها ولا يرى إجمالا
يشرب الناس من جداولها العذ ** بـــة والقلب في صداه زلالا
كيف لا تلحمان فجرا وقد يخـــ ** رج من ظلمة سنى وطلالا؟
ولـــه الجيش يطردون جنود الـ ** حـــالكات ليجعلوها ضئالا
كـــان هذا الوبالِ أجرا لها في ** تـــركها الكائنات تلقى وبالا
واحمـلاني إلى الخمائل ذات الـ ** ظـــــل أنغامها لنا تتوالى
من صداح الطيور من رقصة الأو ** راق تـــــيها يمينا وشمالا
ونمـــــال القرى تدب دبيبا ** يتلقّى الإنســـــان منها كمالا
تجلب القوت في شتاء لصيف ** لا ترى الضعف عندها والكلالا
هكذا النحل في الخلايا تراها ** ذات ســـيف تغزو به أطفالا
تخدم الناس وهي خاضعة تبـ ** ذل أعسالها لهـــــم إجلالا
إنّ ربّا يدير كل شؤون الـــ **كون لا بد أن يرى فـــعّالا[9]

افتتح الشاعر القصيدة مناديا صاحبيه بالرجوع عن هوى النفس إلى خشية الخالق البارئ، ثم أخذ يعدد آثار قدرته تعالى المتمثلة في مظاهر الطبيعة الصامتة منها والمتحركة، ذكر من الطبيعة الصامتة: السموات، والأرض، والجبال، والمطر، والفجر، والظلمة، والبساتين، ومن الطبيعة المتحركة النسر، والنملة، والنحل. فدعا صاحبيه ليتفكرا ويتدبرا آثار قدرة الله في مظاهر الطبيعة المذكورة. واختتم القصيدة بأن الله هو مسير الكون جميعا، لا يغيب عن علمه شيء في السموات والأرض.

تنبثق إسلامية عاطفة الشاعر وأفكاره من حقيقة إسلامية تتمثل في حصر القوة والحول لله سبحانه وتعالى، ذلك الإله ذو القوة المتين، ونفي القوة والحول عن غيره:

إنّ لله قوّة فانظراها ** تريا قوة سواها محالا

وبهذه القوة والقهر خلق جميع الخلائق من الطبيعة وغيرها، فجميع المخلوقات خاضعة لقوته وقهره. ويفند الشاعر آراء الطبيعيين، الذين يقولون بأن الكائنات تجرين على الطبيعة، حيث أكد في آخر القصيدة بأن الله سبحانه وتعالى هو مدير شؤون الكائنات، فلا يغيب عن علمه شيء لا في الأرض ولا في السماء، لا ورقة ولا حبة ولا نملة إلا وقد أحاط علمه بها، فهو خالق الكون ومدير شؤونه:

إن ربّا يدير كل الـ ** كون لا بد أن يرى فعّالا

الخاتمة

أثبتنا أن مجلات الأدب الإسلامي تتسع اتساعا شاملا لمواضيع الحياة كلها وقضايا الإنسانية بأنواعها، ومظاهر الكون والطبيعة بأشتاتها. وتنطلق شمولية هذا الأدب من شمولية الإسلام ورسالته. ولما كانت

مظاهر الطبيعة من صنع الله المبدع أشغلت عجائبها عقول الأدباء، واستحوذت محاسنها على نفوسهم، فوقفوا عندها متأنين ومتأملين ومتعاطفين. لكن يظل تعبير الأديب المسلم أصدق التعبيرات عن الطبيعة، وشعوره عنها أصوب المشاعر والأحاسيس، إذ يستقى تعبيره وشعوره من تلقاء المبدع الصانع، وقد تميزت مشاعر وعواطف الأدباء الإسلاميين عن الطبيعة فيما أوردنا من القصائد بثلاث سمات أساسية: ميزة إسلامية، وميزة إنسانية، وميزة التعاطف والتفكر، وكلها تمثل صورة من صور التصور الإسلامي للطبيعة.

الهوامش

1- محمد قطب: **منهج الفنّ الإسلامي**، بيروت، دار الشروق، 1993م ص 122.

2- عبد الرحمن رأفت الباشا، **نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد**، جدة، دار الأدب الإسلامي، 1998م، ص 132.

3- محمد قطب، المرجع السابق، ص 16

4- وقع في البيت خطأ نبّه إليه الناشر.

5- **ديوان مصطفى صادق الرافعي**، الجزء الأول، مؤسسة الكتب الثقافية، 1993م، ص 136

6- **الرياض**، ديوان الدكتور عيسى ألبي أبوبكر، إلورن، مطبعة ألبي، 2005م، ص 15.

7- الدكتور جلال حجازي: **شعر الطبيعة بين الأندلسيين والمشارقة**، القاهرة، مطبعة الأمانة 1981م، ص 150.

8- الدكتور جلال حجازي، المرجع السابق 203.

9- الدكتور عيسى ألبي أبوبكر، المرجع السابق، ص 126.